

"دراسات عن الرهانات الثقافية" لأحمد بوكوس من تفكيك رهانات الثقافة إلى تأسيس ثقافة الرهانات

Aziz Lamtaoui



Édition électronique

URL : <https://journals.openedition.org/asinag/2583>

Éditeur

Institut Royal de la Culture Amazighe (IRCAM)

Édition imprimée

Date de publication : 1 décembre 2022

Pagination : LXXXI – LXXXVIII

ISSN : 2028-5663

Référence électronique

Aziz Lamtaoui, « من تفكيك رهانات الثقافة إلى تأسيس ثقافة "دراسات عن الرهانات الثقافية" لأحمد بوكوس », [على الإنترنت], 17 | 2022, نشر في الإنترنت 01 février 2024, تاريخ الاطلاع 20 février 2024. URL: <http://journals.openedition.org/asinag/2583>



The text only may be used under licence CC BY-NC-ND 4.0. All other elements (illustrations, imported files) are "All rights reserved", unless otherwise stated.

"دراسات عن الرهانات الثقافية" لأحمد بوكوس

من تفكيك رهانات الثقافة إلى تأسيس ثقافة الرهانات*

عزيز متاوي

باحث مترجم

The descriptive-analytical introduction to the translation of Ahmed Boukous's work foregrounds the challenges that the author has addressed via the adoption of various theoretical and methodological underpinnings where critical sociological analysis, archaeology, anthropology, linguistics, discourse analysis, semiotics, methods of literary criticism, discourse analysis intermingle. This approach has made it possible for the author to clarify many aspects absent from the self-discourse on Moroccan identity. In addition, the translator highlights the strength and legitimacy that characterize the discourse invested by the author, along the scientific as well as the ideological standpoints, which are both tied to the claim to establish a Moroccan identity in its diverse dimensions. He has also brought about the binary nature of the language used in these studies, where the denotative aspect is present next to the connotative one in a dazzlingly aesthetic fashion, the strong violent tone next to the soft calm one. From the foregoing, it emerges that the goal meant to be achieved is to, eventually, reach this archetype which transcendently overhangs our diversity and plurality. This archetype is translated into reality under the form of a distinctive Moroccan aspect, namely "Tamaghrabiyt".

L'introduction descriptive-analytique à la traduction de l'ouvrage d'Ahmed Boukous^[1] met l'accent sur les enjeux abordés par l'auteur en adoptant de multiples soubassements théoriques et méthodologiques où juxtaposent l'analyse sociologique critique, l'archéologie, l'anthropologie, la linguistique, l'analyse du discours, la sémiotique, les méthodes de critique littéraire, l'analyse structurelle du récit et la morphologie du conte. Cette démarche a permis à l'auteur d'explicitier de nombreux aspects absents du discours de soi sur l'identité marocaine. Par surcroît, le traducteur a mis en évidence la force et la légitimité qui caractérisent le discours investi par l'auteur, aussi bien dans son côté purement scientifique qu'idéologique, liés tous les deux à la revendication d'instaurer une identité marocaine dans ses multiples dimensions. Il a également porté une réflexion sur le caractère binaire du langage employé dans ces études, où est présent l'aspect dénotatif à côté de celui connotatif dans sa dimension esthétique éblouissante, le ton violent fort à côté de celui calme doux. Et ce pour accéder, finalement, à cet archétype qui surplombe, transcendentement, notre diversité et pluralité. Cet archétype se concrétise sous forme d'aspect marocain distinctif : "Tamaghrabiyt".

* صدرت الترجمة ضمن مطبوعات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، دار أبي رفاق، 2022، في 318 صفحة.

[1] *Essais sur les enjeux culturels.*

صدرت ترجمة عربية لكتاب "دراسات عن الرهانات الثقافية" لأحمد بوكوس أنجزها عزيز لمتاوي، والذي صدرها بمقدمة وصفية تحليلية رصد فيها الرهانات التي قاربها المؤلف باعتماد مرجعيات نظرية ومنهجية متعددة، يتجاوز فيها التحليل السوسولوجي النقدي مع الأركيولوجي والانتروبولوجي واللسانيات وتحليل الخطاب والسميائيات وطرائق النقد الأدبي والتحليل البنيوي للسرد ومورفولوجيا الحكاية، والتي مكنته من إمادة اللثام عن جوانب عديدة مُعَيَّبة من الخطاب الذاتي عن الهوية المغربية. علاوة على ذلك، فقد أبرز المترجم قوة الخطاب ومشروعيته سواء في جانبه العلمي الصرف أو في جانبه الإيديولوجي، والمرتبطين معا بالمطالبة بتأسيس هوية مغربية في أبعادها المتعددة، كما توقف أيضا عند الطابع الثنائي للغة الموظفة في هذه الدراسات التي يحضر فيها التقريري المباشر إلى جانب الإيحائي ذي البعد الجمالي الأسر، والعنيف القوي إلى جانب الهادئ اللين، وصولا في نهاية المطاف إلى هذا النمط الجامع الذي يُشرف من أعلى على اختلافنا وتعددنا. إنه النمط المتمثل في الطابع المغربي المميز. إنه "تمغريت".

نص المقدمة

تُعَدُّ هذه الدراسات، بالنظر إلى موضوعاتها وإشكالياتها وقضاياها المتعددة، الراهنة والسالفة والمتطلعة إلى المستقبل، تكريما للبحث الذي اتخذ من المغرب ذاتاً وموضوعاً، والذي تأسس في سياقات متعددة، وأنتجه باحثون مختلفون ينتمون إلى مشارب متباينة، وإلى مجالات جغرافية متعددة. هذا البحث الذي تحقّق على امتداد ما يزيد على قرن من الزمان تتم استعادته هنا، لكن من منظورات أخرى تسعى إلى إعادة صياغة الأسئلة المطروحة أو طرح أسئلة أخرى بحثاً عن أجوبة مغايرة. وتتجلى هذه الاستعادة في مطلع كل فصل حيث يتم تكريم علم من أعلام هؤلاء الباحثين، سواء الذين أسهموا في مساءلة العديد من تجليات ثقافة هذا البلد أو الذين شكّلت أبحاثهم، في مختلف المجالات، خلفيةً نظريةً ومنهجيةً لهذه الدراسات. إنه يُعتبر احتفاءً بهذا النوع من التفكير، المغيَّب أو الذي تم تغييبه قسراً من مجال الاهتمام الثقافي العام أو من الحقل التربوي على صعيد المدرسة بكل تجلياتها، أو من وسائل إحداث العنف الرمزي بتعبير بورديو Bourdieu التي قد تؤدي وظيفة مغايرة بإثارها أسئلة هذا الفكر وخلقها ديناميةً في هذا الاتجاه.

يتداخل في هذه الدراسات التحليل السوسولوجي النقدي والأركيولوجي والانتروبولوجي واللسانيات وتحليل الخطاب والسميائيات وطرائق النقد الأدبي والتحليل البنيوي للسرد ومورفولوجيا الحكاية، وغيرها. إنها مجالات يستعير منها بوكوس أدواته لمسألة رهانات الحدائث في مغرب مُتعدد مازالت تُثقل كاهله آثار التقليد، ويتوق إلى التحرر من بقايا وآثار

زمن ما قبل الحداثة كما تجلت هنا والآن؛ في الواقع القائم وفي الكتابات السوسولوجية، وفي التخييل وكتب الرحلة وكلّ تجليات الثقافة المغربية في تعددها الأيسر. إنه تحليل للحرف والكتابة، للخطوط والظلال، للألوان والأشكال الهندسية، لحركة الانسان ومنطوقه وعلاقاته ومختلف تعبيراته الثقافية ضمن الألسنة المختلفة (العالمية وألسنة التداول اليومي والجماهيري/العربي، والأمازيغي، والفرنسي، والعبري..)، تحليل للذات وللآخر الذي ألفت به رياح العولمة، أو دفعنا إليه فُضول الاكتشاف والمعرفة، تحليل للأنا وللغير في البعدين المحلي والكوني، إذ ليس الآخر دائماً ذلك الذي يقبع في الضفاف الأخرى لِمِياهُنا وصحرائنا وسهولنا وجبالنا، بل إنه الآخر الذي يعيش معنا في الكيان الجغرافي والتاريخي نفسه، ويختلف عنّا / ومعنا لسانا وتقاليد وعادات وقيما ودينا. الآخر المختلف والمؤتلف داخل الذات نفسها، الآخر المحتفى به والمنبوء... ما السبيل الذي يقودنا إذن إلى تفاعل بيثقافي يضمن الاتصال والانفصال، يضمن تعايش المؤتلف والمختلف؟ تلك هي رهانات الثقافة المغربية في تَبَدُّيها المتعدد والمتنوع. ومن ثمة، حضور مؤلف بتجليات مُتعدِّدة متنوعة، تتداخل أحيانا مع بعضها إلى حدِّ التماهي، وتتباعد وتتمايز أحيانا أخرى إلى حدِّ التعارض. هكذا، يَضْعُنَا المؤلّف أمام المرآة لنرى ذواتنا وحقيقة الشخصية المغربية في تعدُّدها وتنوعها الكبير حتى لا ننسى أن "مَغْرِبِيَّت" (الطابع المغربي المميّز) ليست كياناً أحاديّ البُعد، وليست نقياً للآخر وتأكيداً بغيباً للذات. إنها هذا الكلّ المتعدد والممتد الذي يُصِرُّ بعض غُلاة الاختزال على بتر بعض أجزائه والتخلص منها في الطريق نحو مغربٍ نرجسي يُكرّس نظرةً معياريةً إلى الانسان والثقافة والمجال. الكتاب يُؤبِّس لذات/لمغرب يسمو فوق الأنا المتعالِم باتجاه الأنا العالم، ويتوق إلى طرح الأسئلة المؤجّلة لعقود من الزمن بسبب ضيق في الرؤيا وفي القلب والوجدان، الأسئلة الوجيّهة التي تعمل على تفكيك رهانات الثقافة وتأسيس ثقافة الرهانات. إنه الرهان الصعب والممكن في الآن ذاته...

يُذكرنا الكتاب بما تنسَاه أو تتناساه العديدُ من الخطابات عن الذات مُروّجة لخطابٍ أحاديّ، ومُكرّسة لنمطية في التفكير والتعبير والتجلي، غافلةً أو متغافلةً عن جوانب، لا أقول مشرقة أو معتمة أو تقع بين الاشرار والعمّمة، وإنما أقول حاضرةً وموجودةً هنا والآن وكفى! ويقتضي منا البحث العلميّ الرصين لفت الانتباه إليها، وطرح الأسئلة الوجيّهة بصدها وفتح مساراتٍ بحثٍ ونقاشٍ بشأنها صوب سبيلٍ يحمِلنا إلى الهوية المواطنة والمتعددة... لأن الهويات الأحادية هويات قاتلة مجنونة. أنّ الأوانُ لننفض الغبار عن ذاكرتنا، ونزيل الغشاوة من على أعيننا حتى يتسنى لنا التفكير والنظر بوضوح وبصورة صائبة.

الكتاب سفر في التاريخ وفي الجغرافيا وفي الهوية. الكتاب كُتِبَ، إذ تُشكل كل دراسة كتاباً مُكتَفَفاً قائماً بذاته، وكأني بالمؤلف أراد قولَ كلِّ شيءٍ ذي صلة في هذا الكتاب. هكذا، جاءت هذه الدراسات حافلة بالعديد من الأفكار، ومُستدعية لكثير من المرجعيات النظرية والفكرية والمنهجية، ومُتوسِّلةً بجهاز مفهومي ضخمٍ ومتنوعٍ، كما طرحت العديد من الأسئلة وأثارت كماً هائلاً من القضايا. وقد انعكس ذلك على صياغة النص، حيث طوّل الجمل المقطّعة بالفواصل والنقط، والتي تطلّب فهمها وترجمتها ضرورةً تقطيعها، وإعادة بنائها من جديد للظفر بالمعنى المقصود، وبلوغ المراد المأمول. الكتاب هدمٌ وتفكيكٌ، بناءٌ وإعادة صياغة...، وسعيٌّ فوق تضاريس متنوعة، إذ يتجاوز فيه خطابان يتفانان في الغاية ويختلفان في الأدوات الموظفة:

الخطابُ العلميُّ الرصينُّ والهادئُّ، والذي يمتحُّ أدواته من حقول معرفية متعددة، ويعتمد أدوات تحليل متنوعة، ويحفل بكَمِّ هائل من المفاهيم يَنُمُّ عن سعة اطلاع واتساع في الأفق والرؤيا، ويُكرِّس الخطابُ المبنيُّ على المقدمات ودقة الملاحظة وأصالة التفكير. إنه خطابٌ يتوجه إلى النخبة بأدواتها ومرجعياتها، حيث يُشيدُ فيه الاقتناعُ على الشاهد العلمي والخلفية المشتركة مبنيٌّ ومعنى. هنا يحضُر الباحث الذي رآكم تجربةً في المجال تمتد لعقود من الزمن تدريساً وتأطيراً وتأليفاً. ويتجلى هذا الخطاب في حضور أبحدياته في مختلف الدراسات التي تُؤثّر هذا المؤلّف انطلاقاً من طرح الإشكالية (بشكل صريح في مستهل جل الدراسات، وبصورة ضمنية في بعضها)، والافتراضات الرئيسة، مروراً بالتحليل (الذي يتخذ تجليات متعددة، ويستدعي مرجعيات نظرية متباينة، ويعتمد أدوات مختلفة)، وانتهاءً بالخلاصات والصياغات التركيبية لنتائج البحث، وتأكيد المسلمات والفرضيات أو نفيها، علاوةً على التحديد المفهومي (على سبيل المثال، تحديد البين طرفين ضمن خطابات متعددة في سياق الحديث عن البيثقاني، العلاقة بين الشفهي والكتابي والإشكالات التي يطرحها الانتقال من ضفة إلى أخرى أو بينهما، التمثيل والدافع والموقف عند الحديث عن انتقال التقليد الشفهي واستمراره في سياق مخالف، الثقافة والتنمية والتنوعات المرتبطة بهذه الأخيرة...)، ناهيك عن كثرة الاحترازمات النظرية والمنهجية، والتميز بين الانطباعي الذاتي وبين العلمي الدقيق، بين الخاص والعام، دون أن ننسى استناده إلى خلفية تمثيلية داعمة للقضايا التي يُنأج عنها، أو مفندة لبعض المزاغم أو الرؤى المغايرة، وقد ضمت هذه القاعدة التمثيلية نصوصاً من خطابات متعددة تنتمي إلى أشكال تعبيرية ومعرفية متنوعة، وإحالات على تجسيدات في الواقع القائم على المستويين المحلي والكوني.

الخطابُ الإيديولوجيُّ، حيث يتراجع الباحث ليُفسح المجال للفاعل السياسي والجمعي والنقابي (على مستوى الخطاب) لصياغة خطاب من طينة أخرى يسير بالموازاة مع الخطاب

الأول ويكمله ويثدُّ أزره، خطابٌ يحضر فيه السجالُ بنبرة حادة، وتتوالى فيه المرافعات، وعرائضُ المطالبات المدبَّجة بلغة قوية تمتح معجمها من الواقع الذي يتيسَّم بهذا التدافع القوي بين أطراف ينزَع كل واحد منها إلى تسيُّد المشهد، وتوظيف كل أساليب الإقضاء أو الإعلاء من شأن الأنا في بعدها الأحادي محلياً، وإقليمياً أو كونياً... إنه خطاب مُغَلَّف بالذاتية التي تتجلى بقوة أحيانا، ويحنو ومرونة أحيانا أخرى، غير أنها تُغَلَّب في الحالتين معا الخطاب الهادئ الرزين والمفتوح الذي يُنَافح عن القضايا دون الوقوع في براثن الذاتية المتطرفة...

وتحضر إلى جانب هذه الثنائية، ثنائية الهدم والبناء، ثنائية النقد والتأسيس، ثنائية تقويض البناءات وتقديم البدائل. ثنائية تقوم بين نقد الأنساق النظرية والذهنية وتفكيكها قصد فهم وإليات اشتغالها وطرائق ترْكُبتها والشروط المتحكِّمة في إنتاجها، وإعادة بنائها من جديد في ظل تصورات نظرية مختلفة ومفاهيم مستحدثة. ويطال هذا الهدمُ والتأسيسُ أو طرْحُ البدائل الممكنة كيانات اجتماعية وسياسية وثقافية متباينة تتخذ، في الغالب، شكل تقابل بين الأنا والآخر، بين الشرق والغرب، بين الأحادية والتنوع، بين الاختلاف المتطرف المنعزل والاختلاف الفاعل والمندمج باتجاه تأسيس الاختلاف الناعم والتمازج الثقافي المركز على النقد المزدوج، وعلى خوض غمار الهجرة من الهويات القتالة والمجنونة إلى الهويات المؤنسة القائمة على الحداثة في بعدها الإنساني النبيل. تتصارع وتتراكب وتتألف ضمن هذه الثنائية أفكارٌ ومفاهيم وتصورات ورؤى غايتها جعلُ الأفراد والمجتمعات يدركون أنهم "ينتمون إلى الإنسانية نفسها، وأهم يرتبطون بالمصير نفسه ارتباطا وثيقا، وأن الاختلافات اللغوية والثقافية ما هي سوى أوجه ثراءٍ ينبغي الحفاظ عليها وتثمينها سواء لدى الذات أو لدى الآخر." وأنه بإمكان الإنسانية أن تُقدِّم بديلا يقف في وجه "الهيمنة الإمبريالية على المستويات الاقتصادية والثقافية والعسكرية، وصدِّ انتشار مختلف أوجه الأصولية (...). وكذا أصولية النقاء العرقي والقومية." وهنا يكمن، بحسب رأي المؤلف، دور المثقف الحر الذي عليه ان يضطلع بمهمة وضع نماذج فكرية مُبتكرة قادرة على إظهار أوجه قصور نماذج بالية، وجعل يوتوبيا الغد ممكنة التحقق.

ويتم تقديم هذه الثنائيات وغيرها في كنف لغة تكتسي هي الأخرى طابعا ثنائيا. هكذا، تنتصب، من جهة أولى، لغةً تقريرية مباشرة تحتفل بالمعنى أكثر من المبنى، وبالبعد البلاغي أكثر من البعد الجمالي، لغةً "علمية" تحفل بالمصطلحات التي تنتمي إلى حقول معرفية متعددة، وتنهض في معظمها على جمل مكثفة مُحَمَّلة بأفكار ومعان تتراحم مع بعضها ضمن حيز لغوي ضيق أحيانا، بيد أنه محملٌ بالدلالات العميقة، لغةً تتوسل بالبرهان وبكل أساليب الاستدلال العقلي قصد الاقتناع وتبيان "صحة" الأفكار وحصافة الرأي، لغةً تكتسي طابعا حواريا مع

الآخر ومع ذاتها، مع البديهيات المضللة والأفكار القائمة حيث تستدعي أطرافاً متعددة، إذ الحوارية فيها غير قائمة على الثنائية التي غدت سخيصة من فرط تكرارها واعتمادها مرجعاً اتفاقياً، ونقصها بما ثنائية الرأي والرأي الآخر، حيث يتم اختزال الفكر والصراع والرأي إلى طرفين حديين مع إقصاء الأطراف الأخرى التي لا تتموضع في أحد الحدين... إنها لغة تُحاور الآراء كلّها وتتخذ موقفاً متميزاً، حيث تصبح بدورها طرفاً مغايراً لا طرفاً أحادياً. ومن جهة أخرى نصادف لغةً إيجابيةً تقرب هذا الكتاب، في مواضع كثيرة، من العمل الأدبي ذي النفس الشعري، حيث حضور كل أشكال الأساليب البديعة والصور البلاغية، والاحتفال بالمبنى المكثف للمعنى. إنها لغةٌ تقودنا إلى استجلاء ثنائية لغوية أخرى بين لغة "هادئة" وأخرى "عنيفة". إنهما لغتان تتجاوزان وتتداخلان أحياناً حدّ الحلول وتنايان عن بعضهما أحياناً أخرى حدّ التنايد. بين العنف والهدوء تحضر ذاتٌ تحاور، تتدافع، وتذهب عند الآخر لتقتحم قلاعه المحصنة بأوهام تمتح من أصوليات متعددة، تُحاج، تحلل، وتقدم يدها من أجل التأسيس المتطلع إلى المستقبل.

تتعدد دراسات هذا الكتاب وتنوع، لكنها تتألف في ما بينها، إذ ثمة خيط واحد ناظم يربط بين مختلف الموضوعات (حديث عن الثقافة بكل تجلياتها، وعن الأدب بكل تلويناته، حديث عن المثقف ومختلف أنماطه ووظائفه، حديث عن المحلي والكوني وتجليات البيثقاني، حديث عن البين طرفين في الخطاب بتعدد أنواعه: في اللسان، وفي الدين...). ويتبدى هذا الخيط الناظم في قضية واحدة، وموضوع واحد هو، بصورة عامة، رهان الهوية في ظل عالم متعدد ومتنوع، وبصفة خاصة، رهان الهوية المغربية حيث يتم قهراً صعوبة تعايش الهويات الذي يرتكز على النظر إلى المغاير على أنه النقيض المنبؤ... الآخر هو الجحيم. لكنني أقول مع المؤلف إن ما يوحد بيننا هو "رابطة الطابع المغربي (تمغريتي) بصرف النظر عن اختلاف العبادة واللسان والثقافة"، وإن "العيش معاً" يظل "الخيار الوحيد المجدي للبشرية لأنه يتعلق ببقاء الجنس البشري".

ويقودنا كتاب بوكوس المدبج بلسان الآخر عن الذات، عن فرحها وحرزها وعن السالف والآني والآتي، إلى طرح أسئلة ثقافية عامة عن الترجمة (الفعل المؤسس والمقوض في الآن ذاته) في ما يتصل بطرائق ممارستها ومبراميتها الكبرى: لماذا نترجم؟ ولمن نترجم؟ وكيف نترجم؟ إنها الأسئلة الرئيسة التي تُلحّص مجمل التفكير النظري الذي تأسس حول الترجمة؛ هذه "الخاتمة" الجميلة، المشاكسة والمتمنّعة.

بالتأكيد، قد يختلف المترجمون بخصوص الإجابة عن السؤال الأخير الذي أسأل مداداً كثيراً، وأنتج سيلاً من الإجابات بدءاً من ملاحظات الأوائل المتناثرة والمصاغية على شكل تعاليم أورتودوكسية، ومروراً وانتهاءً بالصياغات النظرية المتناسكة والمستلهمة لأدوات مستنبطة من مختلف المجالات المعرفية... لكنهم، على النقيض من ذلك، يتفوقون تقريباً في ما يتصل بالإجابة عن السؤال الأول والثاني. إننا نترجم مستحضرين الآخر في الثقافة المغايرة، الآخر الذي ينتمي إلى لسان آخر وفضاء مغاير، الآخر الذي نحتاج إليه لسد فراغ وتدارك نقص، حاصل أو طارئ، في ما يتعلق بالإنتاج المحلي، وتغذيته عن طريق النقل وإعادة الصياغة والبناء والتأسيس الذي يُفكك القائم ويهدمه، ويُعيد تركيبه بالاعتماد على القادم من الضفاف الأخرى... نُترجم لأننا ننتقل من فناعة راسخة تتجلى في كون الترجمة تساهم في انتقال الأفكار من ثقافة إلى أخرى، وفي التلاقح بين الحضارات على أساس أنها تتم من لسان إلى لسان آخر، كما أن الانتقال يحدث من سياق ثقافي وحضاري إلى سياق آخر مختلف... بيد أننا نقوم هنا، في هذا المؤلف، بالنقل من لسان إلى آخر، لكن ضمن السياق الثقافي ذاته. ما الذي نُترجمه في هذه الحالة ونقوم بتأمين انتقاله؟ ثم هل ما نقوم به هو ترجمة ونقل أم حديث عن الذات بلسانين، وفي لحظتين زمنييتين يتأسس فيهما الحديث اللاحق انطلاقاً من وجهة نظر الحديث السابق ومنطلقاته ومقصديات قوله؟ أم أن الترجمة تتم بهمّ تعميم القول وإبلاغه لأحاديي اللسان داخل الثقافة ذاتها، بعد أن يكون قد استنفد أمد حضوره في لسان الآخر؟

ولا تُعد حالة بوكوس استثناء من القاعدة، بل إنها تنضم إلى كم هائل من الكتابات، وفي مجالات متنوعة (سوسولوجيا، واقتصاد، وسياسة، وتخييل، وشعر...). نحن إذن أمام ظاهرة تقتضي منا لفت الانتباه وطرح الأسئلة الوجيهة بصدها، في انتظار الإجابات الثقافية الكبرى عنها التي تحوز في الاستمولوجي، والسوسولوجي، والسياسي، بقصد فهم مُحركات "هروب" الذات من لسانها للكتابة بلسان الآخر عن واقعها وأحلامها ومآلها، عن كبواتها وإشراقاتها، عن الهوية وعن الآخر، ثم هل هو "هروب" أم اختيار واع وإرادي؟ هل الكتابة عن الذات بلسان الآخر رغبة من الأنا في الانفتاح على الآخر وتفاعل معه وإثبات للتميز والندية، وتعريف بالثقافة الخاصة في تجلياتها المختلفة؟ أم أنه محاولة لتسويق صورة فولكلورية وفرجوية عن الذات قصد كسب حظوة لدى الآخر؟ إنها أسئلة تنطلق من همّ أركيولوجي عميق تتداخل ضمنه وتتقابل العديد من المفاهيم والرؤى المحددة للذات في علاقتها بالآخر، والمحددة للآخر في علاقته بالذات؛ من قبيل: الهوية، الآخر، الاستلاب، التفاعل، التأثير، التلاقح، وغيرها من المفاهيم التي تستدعيها هذه الحالة المقلقة والمربكة في الآن نفسه.

لمن نكتب؟ ولمن نترجم إذن؟ ثم ماهي مقصديات اشتغال الفعلين معا في هذه الحالة؟ نحن نعلم بأننا كما نقرأ الآخر (القراءة الأفقية والعمودية، البرينة والآثمة، الأحادية والمتعددة)؛ يتعين عليه، هو الآخر، أن يقرأنا. نحن نقرأ الآخر في لسانه وعن طريق الترجمة، فتكون القراءة فعلا واعيا، والذهاب نحوه اختيارياً وإرادياً وقصدياً. فهل الآخر يقرأنا بالمنطلقات ذاتها؟ أم أن الذهاب من ضفة إلى أخرى مرهون بصراع المركزيات والقوى والسياسة والاقتصاد؟ هل نكتب للذات وعن الذات ونترجم للآخر؟ أم نكتب للذات وعن الذات ونترجم للذات؟ ثم هل نترجم الآخر قصد قراءة؟ أم نقرأه قصد ترجمته؟ إنها أسئلة تروم إجراء بحث أركيولوجي عميق في هذين الفعلين، الكتابة والترجمة، اللذين يقتربان من بعضهما حدّ التماهي، وينأيان عن بعضهما حدّ التنافر.

إنني آثرت هنا طرح الأسئلة، وإثارة الانتباه أكثر من الإجابة، متعجلا ومستبقا اختصار السؤال في ذهن الأجيال وتوفر شرط الإجابة الذاتي والموضوعي والمعرفي. السؤال حفر في اتجاهات متعددة وتوسّل بمرجعيات متنوعة. إنه تعالٍ، سمو وانفعال إبستمولوجي، توق نحو آفاق رحبة، نحو السؤال لتبدأ الدائرة من جديد إلى ما لا نهاية.

بعد هذا السفر الطويل الحافل، لن أجد أعمق وأجمل من عبارة إدريس الشرايبي التي ختم بها المؤلّف سفره الممتع والمضني في الآن ذاته، لأختم بها سفري في تضاريس هذا الكتاب المتنوعة: "أنا أحب بلدي، ويتعين عليّ فقط، مهما كنت بعيدا في جميع أنحاء العالم، أن أغمض عينيّ لأراه وأستمع إليه، وأشم رائحته وأشعر به". بالفعل ما علينا إلا أن نغمض أعيننا لكي يكون بمقدورنا رؤية بلدنا بعيدا عن ضوضاء الصُور المتزاحمة التي تُجِبُّ عنا الرؤية الصحيحة، وتقطع عنا حبل التأمّل، وتحملنا من الإحساس الصوفي النبيل بفرادتنا وتعددنا واختلافنا، إلى الإحساس المتوجس من تنوعنا وتعايشنا تحت السماء نفسها. بالفعل، ما علينا إلا أن نغمض أعيننا لنراه هويةً متعددة تُمكِّننا من أن ندركه في وحدته لا في تفككه، في امتداده لا في انحساره، في سحره الأسر لا في كآبته المتحجرة. الوطن إحساسٌ بالذات، بالغير وبالأخر. الوطن سمفونية تتعدّد حروفها وتختلف جملها، لكنها تتحدّ لتعزف لنا واحداً شجياً بنفْس واحد وإحساس عميق... بالفعل ما علينا إلا أن نغمض أعيننا أينما كنا لنراه ونستمع إليه ونبنيه كما نشتهيهِ، ونقترب منه لأن المسافة ليست دائما كمية، وإنما إحساسا وكيونونة تسمو فوق المبتذل والعارض باتجاه الجوهري والصوفي، حتى ندرك "سكينة الروح" وممتلك "قيم حداثّة مؤنسنة"... من هنا تبدأ الرحلة.